تقديم الكتاب

المنهج أو الطريقة Method مصطلح يستخدم ـ بوجه عام ـ ليشير إلى وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة. ويستخدم ـ فى المجال العلمى ـ بمعنى الخطة المنظمة التى تشمل العديد من العمليات الحسية والذهنية للوصول إلى قاعدة أو قانون، أو البرهنة على صحة فرض أو خطئه. والطرق أو المناهج المستخدمة فى البحوث العلمية عديدة ومتنوعة بحسب موضوع الدراسة؛ ولذا يقال أن الطريقة أو المنهج يكون موضوعيًا وصحيحًا كلما تطابق مع الموضوع المدروس. (جابر وكفافى، ١٩٩٢، جـ ٥: ٢١٧٨).

وأما المنهجية، أو علم مناهج البحث Methodology فهو مصطلح يعنى التحليل والتطبيق المنهجى أو المنظم للإجراءات التى تستخدم فى الفحوص والدراسات العلمية أو فى أى مشروع بحثى معين. والمنهج العلمى هو فى النهاية مزيج جدلى من المنطق والملاحظة التجريبية. ومناهج البحث أحد فروع علم المنطق. ولكل علم أو مجال من مجالات المعرفة مناهج بحثه التى تتسق مع منطقه. (جابر وكفافى، ١٩٩٢، جـ ٥: ٢١٨٠).

المنهج ـ إذن ـ هو الوسيلة والطريقة التى تستخدم للوصول إلى الحقيقة، ويسلكها العقل البشرى للاقتراب من الحقائق والوصول إليها. والمنهج والمنهجية ليسا حقيقة واحدة، وإنما أحدهما يمثل إطارًا للآخر، فالمنهجية Methodology هى العلم الذى يدرس كيفية بناء المناهج، واختبارها، وتشغيلها، وتعديلها ونقضها وإعادة بنائها، يبحث فى كلياتها ومسلماتها وأطرها العامة. أما المنهج Method فهو كما ذكرنا طريق الوصول إلى الحقيقة .

وأما مناهج البحث فهى الطريقة التى يتبعها العقل فى دراسته لموضوع معين للتوصل إلى قانون عام، أو مذهب جامع، أو هو فى الحقيقة ترتيب الأفكار ترتيبًا دقيقًا بحيث يؤدى هذا الترتيب الدقيق إلى كشف حقيقة مجهولة، أو البرهنة على صحة حقيقة معلومة .

ويحرص الباحثون على تحديد المناهج التى يعالجون بها دراساتهم قبل مزاولة البحث فى موضوعاتهم، فالبحث عن الحقائق ومحاولة التوصل إلى قوانين عامة، لا يكون قط بغير منهج واضح يلزم الباحث نفسه بتتبع خطواته ومراحله. ولهذا يعرف البعض المنهج على أنه " تقنية عمل فى هذا الحقل أو ذاك من حقول المعرفة البشرية، للكشف عن حقيقة ما أو مقاربتها تحليلًا وتركيبًا. وهو بهذا يكون مسألة موضوعية يتحكم فيها قانون تراكم الخبرة ."

والسؤال الذى يمكن أن يطرحه الطالب يمكن أن يكون أحد هذه الأسئلة أو جميعها: هل من الضرورى أن نتعلم مناهج البحث؟ لماذا يتعين علىّ الاهتمام بالبحوث والدراسات التى أجراها باحثون آخرون؟ لماذا يجب على أن أقوم بنفسى بإجراء بحث علمى يومًا ما؟

إن هذه الأسئلة وغيرها يمكن أن تثار إذا كان السؤال الرئيسى الذى يطرح هو لماذا ندرس مناهج البحث؟

وواقع الأمر أن ثمة تصور شائع عن الطلاب يذهب إلى أنهم قد يعترضون بشدة على دراسة مناهج البحث، وأن بعضهم قد لا يرغب فى معرفة أى شئ عن مناهج البحث لأنهم ليسوا فى حاجة إلى هذه المعرفة أبدًا، وهم يحاولون أن يدعموا هذا التصور. بيد أنه إذا كان هؤلاء الرافضون لتعلم مناهج البحث يخططون من أجل الاستمرار فى التعلم والحصول على درجات عليا ومتقدمة، أو من أجل الحصول على مهنة تتصل من قريب، أو بعيد بالعلوم السلوكية، فإن مثل هذا التصور من المكن أن يكون خاطئًا وغير صحيح تمامًا .

إن العلماء فى ميدان العلوم السلوكية يهتمون بالسلوك الإنسانى. وهناك أنواع

متباينة من العلوم والعلماء السلوكيين. وهم على تنوعهم واختلافهم يهتمون بما يفعله الناس فى حياتهم، والأسباب التى دفعتهم للقيام بهذه الأفعال؟ وما يمكن أن نتعلمه من خلال دراستنا لأفراد البشر فى مواقفهم الحياتية الكثيرة. ومن الصحيح أن هؤلاء العلماء يسيطر عليهم الفضول وحب الاستطلاع لمعرفة كل ما يتعلق بالسلوك الإنسانى وطبيعته ومحفزاته ودوافعه .

وقد يكون من الممكن لطالب يدرس مناهج البحث أن يخطط لأن يكون فى مستقبل حياته معلمًا للتلاميذ، أو أن يكون ضابط شرطة يتعامل مع الأحداث الجانحين، أو يعد نفسه للعمل فى مجال الإعلام أو الإعلان بكل ما يقتضيه من توفر عناصر الإثارة والتشويق، أو يعد نفسه لأن يكون باحثًا اجتماعيًا يقوم بإجراء بحث وكتابة تقرير علمى بشأن إساءة معاملة الأطفال؛ كالإيذاء الجسدى لهم مثلًا؛ وتقديم هذا التقرير إلى محكمة الأسرة؛ وما إلى ذلك .

وفى ضوء الأمثلة التى ذكرناها وغيرها، يتعين القول أن من المهم الإلمام بشئ عن مناهج البحث. وذلك للأسباب التالية :

الأول: أن من المحتمل أن يصبح طالب الدراسات العليا فى حياته المستقبلية المهنية مطالبًا بأن يقوم بعملية تقييم، ومراجعة، وفحص بحوث علمية قام بها آخرون فى وقت ما .

الثانى: أنه، بصرف النظر عن العمل أو المهنة التى سوف يمتهنها الطالب ـ الآن ـ أو فى مستقبل حياته، هو فى حاجة لأن يقوم بنفسه بإجراء بحث علمى فى يوم من الأيام .

الثالث: أن دراسة مناهج البحث بالنسبة لطلاب الدراسات العليا هو نوع من الإعداد الأكاديمى كى يصبح الطالب قادرًا بنفسه على إعداد بحث علمى .

وقد اعتاد المؤلفون لكتب مناهج البحث فى التربية وعلم النفس أن يعرضوا هذه المناهج بشكل متواتر، وطرائق عرض لا يشذ عنها أحد؛ ذلك أنهم فى الأغلب الأعم يبدأون بالمنهج التجريبى، فالمنهج الوصفى، فالمنهج الكلينيكى ـ إلخ، حتى

يفرغون من عرض المناهج الخمسة أو الستة الشائعة فى الميدان، بيد أن الشكل الذى عرضت به هذه المناهج فى كتاب " مناهج البحث وطرق التحليل الإحصائى فى العلوم النفسية والتربوية والاجتماعية " لكل من العالمين الجليلين " فؤاد أو حطب وآمال صادق " (١٩٩٦) جاء مختلفًا إلى حدٍ بعيد؛ إذ جاء عرض هذه المناهج على نحوٍ تصنيفى واضح فى ضوء عددٍ من الأبعاد مشتملًا على أربعة أسس يمكن الاعتماد عليها، ثم أضافا فئة خامسة من المناهج لا تقبل التصنيف فى أى فئةٍ من الفئات الأربع السابقة .

لقد كان واضعا هذا التصنيف محقين كل الحق حين قررا " أن معظم المؤلفات المتخصصة فى مناهج البحث فى العلوم النفسية والتربوية والاجتماعية لا تقدم للقارئ تصنيفًا واضح المعالم لهذه المناهج، يجعل لها معنى ومغزى عند الاستخدام (ص ٥٥) كما كانا صادقين حين ذكرا أنهما يعرضان تصنيفًا لمناهج البحث يرجوان أن يحقق هذه الغاية ـ أى وضوح معالم هذه المناهج بحيث يجعل لها معنى ومغزى عند الاستخدام .

وبناءً على ما سبق، واقتناعًا بهذا التصنيف سوف يعرض المؤلف مناهج البحث النفسى والتربوى فى ضوء هذا التصنيف الخماسى إن صح هذا التعبير .

ولقد راعيت فى هذا الكتاب أن يكون بين بين. ذلك أن هناك كتب أخرى تتناول نفس الموضوع أى مناهج البحث ـ بعضها مترجم يوغل فى تفاصيل تخرج بالقارئ عن نطاق التركيز حين يقرأ، وتضرب أمثلة بعيدة إلى حدٍ كبير عن ميدان التربية الخاصة، وبعضها الآخر موجز بالغ الإيجاز والاختصار لا يكاد يوفى الموضوع حقه. والبعض الثالث يتناول بعض مناهج البحوث ويغفل عن ذكر مناهج أخرى .

ولذلك حاولت أن يجئ هذا الكتاب بحيث يلم بأطراف مناهج البحث فى ميادين التربية والتربية الخاصة وعلم النفس، دون أن يقع فى خطأ الاستطراد الممل، أو الاختصار المخل. بكلمات أخرى حاولت أن يتخذ كتابى هذا موقفًا وسطًا،

بمعنى أن يسد الفجوة بين البساطة الزائدة عن الحد، والعرض المعقد للموضوعات على اختلافها وتباينها. وأن يكون شاملًا للمناهج الأساسية، وفيه إشارة ـ ربما تعد الأولى ـ إلى محاولات منهجية فى ميدان التربية الخاصة؛ وأن يكون حافلًا بالأمثلة الواضحة التى تعتمد عليها البحوث العلمية .

ويشتمل الكتاب على ثمانية فصول؛ عرض المؤلف فى **الفصل الأول** تصنيف مناهج البحث فى ضوء بُعد الزمن وذلك بالإشارة إلى المنهج التاريخى والمنهج الامبيريقى والمنهج التنبؤى كممثلين لدراسة الماضى والحاضر والمستقبل .

وعرض المؤلف فى **الفصل الثانى** تصنيف مناهج البحث فى ضوء حجم المبحوثين وذلك بالإشارة إلى مناهج دراسة الحالات الفردية ومناهج دراسة العينة ومنهج الأصل الإحصائى العام .

وتابع المؤلف حديثه عن مناهج البحث ولكن فى ضوء درجة التحكم فى المتغيرات المستقلة المستخدمة فى البحث ممثلة فى المنهج أو الطريقة الارتباطية والمنهج التجريبى والمنهج شبه التجريبى وذلك فى **الفصل الثالث** .

وخصص المؤلف **الفصل الرابع** لعرض بعض مناهج البحث فى ضوء أهداف الدراسة ممثلًا فى المنهج الوصفى والمنهج التفسيرى والمنهج التحكمى .

وتناول المؤلف فى **الفصل الخامس** بعض مناهج البحث ذات التقسيم الذى يصعب تصنيفه تحت التصنيفات السابقة ممثلًا فى المنهج الارتقائى والمنهج المقارن، ومنهج التحليل البعدى .

وأفرد المؤلف **الفصل السادس** للحديث عن العديد من أدوات جمع البيانات والمعلومات التى لا غنى للمناهج جميعًا عن الاستعانة بها والإفادة منها .

ونظرًا لانتماء المؤلف إلى ميدان التربية الخاصة لسنوات بعيدة فقد كان يتعين عليه أن يشير إلى البحث العلمى فى هذا الميدان، ولذلك فى هذا **الفصل السابع** يترجم دراسة نظرية ـ أو لنقل مقالًا ـ يتناول مناهج البحث العلمى والممارسة القائمة على الدليل والبرهان، ويرى أن دراسة واحدة لا تكفى؛ ويعد طلابه وطالباته بمزيد من الترجمة فى هذا الصدد فى طبعات قادمة بمشيئة الله .

واختتم المؤلف كتابه **بفصل ثامن** عن نماذج من مناهج البحث فى إحدى الفئات التى تنتمى لذوى الاحتياجات الخاصة، وهم المعوقين عقليًا .

ولا أزعم أننى قدمت فى هذا الكتاب كل مناهج البحث فى المجالات التربوية والنفسية والاجتماعية وفى ميدان التربية الخاصة، ولا أستطيع القول أننى قمت بكتابتها على الوجه الأكمل، ولكننى أقول أننى حاولت، فإن كنت قد نجحت نسبيًا فذلك فضل من الله، وإن كنت لم أوفق فسوف أحاول تجنب أخطائى فى مؤلفات لاحقة .

وفى ختام تقديمى لكتابى هذا لا أملك إلا أن أشيد بمعاونة طلابى وطالباتى فى الدبلوم الخاصة فى التربية الخاصة بكلية التربية جامعة عين شمس، على ما زودونى به من مادة علمية أثرت هذا الكتاب وأشكرهم شكرًا جزيلًا، كما لا يفوتنى أن أخص بالشكر نخبة الباحثين الجدد من المسجلين لدرجتى الماجستير والدكتوراه وزملائى وزميلاتى من الشبان الواعدين والشابات الواعدات فى مجال البحث العلمى .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المؤلف في أكتوبر ٢٠١٣م

ذو الحجة ١٤٣٤هـ